اللغة العربية في كتب المبشرين الأولين

الأستاذ عبد اللطيف الطيباوي

— ١ —

أصدرت المطبعة الأمريكية رسالة ، بمناسبة مرور مئة سنة على نقلها من مالطة إلى بيروت ، جاء فيها أن المطبعة « تَخَصَّصَتْ بخدمة اللغة العربية » في وقت كانت فيه صناعة الطباعة « مجهولة في البلاد » وأن المطبعة « كانت العامل الأول في اليقظة من ذلك الرقاد الطويل والنهضة الأدبية في الشرق الأدنى »[١] . وكتب أحد رؤساء الجامعة الأمريكية في بيروت أن هذه المطبعة ، مع غيرها من نتائج نشاط المبشرين الأمريكان ، قد عملت على إحياء الثقافة العربية التي كانت على زعمه منسية في الغالب[٢] .

تتكرر هذه المزاعم في كثير من الكتب في الشرق والغرب ، مع أنها لا ترتكز على أساس من الحقائق ، كما يظهر لكل من ينقّب في سجلات المبشرين أنفسهم المحفوظة في مكتبة جامعة هارفارد وفي مقر جمعياتهم في مدينة بوسطن ونيويورك . والغريب أنه لم يُنْسب شيء من الفضل في إحياء التراث العربي أو خدمة اللغة العربية إلى المبشرين البريطانيين رغماً عن أنهم سبقوا الأمريكان بتأسيس مطبعة خاصة باللغة العربية في مالطة نشرت عدداً غير قليل من الكتب الدينية والمدرسية .

---

(١) العيد المئوي لنقل المطبعة الاميركانية إلى بيروت ١٩٣٤ ص ٢ ، ١٥ .

(٢) Stephen Penrose, The Story of the American University of Beirut (New York, 1941) p. 5.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بحثنا هذه المسائل في مواضع مختلفة من كتابين نشرناهما باللغة الانكليزية[١]. ثم لخصنا الشواهد في كتاب ثالث أيضاً باللغة الإنكليزية[٢] . وأخيراً عرضنا ما يختص باللغة العربية منها في مقالات نشرت في هذه المجلة أولها « نصوص وحقائق لم تنشر عن أصل النهضة العربية في سورية »[٣] وآخرها « القس إلاي سمث ورسائله في اللغة العربية »[٤] . والغرض من هذه المقالة درس بعض الكتب التي نشرها المبشرون الأولون من البريطانيين والأمريكان في مالطة وفي بيروت في النصف الأول من القرن التاسع عشر ، لتعيين قيمتها مادةً ولغةً ، وتقدير أثرها في النهضة الأدبية ، ثم درس المزاعم نفسها فيما يتعلق بكتب اللغة العربية والأدب العربي .

وتمهيداً لذلك لا بد من تجريح ما قيل : إن الطباعة كانت مجهولة عندما أسس الأمريكان مطبعتهم في بيروت ، إذ المشهور أن الطباعة بأحرف عربية قد ظهرت لأول مرة في بلدة فانو في إيطاليا في القرن السادس عشر ، ثم انتشرت في بلدان مختلفة في أوروبا . وكانت الغاية منها دينية تكاد تقتصر على نشر الكتاب المقدس . ثم انتقل فن الطباعة إلى عاصمة السلطنة العثمانية وسورية. وأقدم المطابع في هذه كانت في حلب ولبنان ، استخدمتها بعض الطوائف النصرانية لأغراض دينية في الغالب .

أما في إستانبول فكانت أول المطابع كذلك في أيدي النصارى واليهود .

---

(١) British Interests in Palestine 1800-1901 ; American Interests in Syria 1800-1901 (Oxford, 1961-1966)

(٢) A Modern History of Syria Including Lebanon and Palestine (London, 1969)

(٣) مجلة مجمع اللغة العربية : م ٤٠ ، ج ٤ (ص ٧٧٥ – ٧٩٣)

(٤) مجلة مجمع اللغة العربية : م ٤٦ ، ج ٤ (ص ٧٥٢ – ٧٦٧)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولم يسمح لمسلم بإنشاء مطبعة إلا بعد صدور إرادة سلطانية وفتوى من شيخ الإسلام ، اشتُرط فيها عدم جواز طبع القرآن أو التفسير أو الحديث أو ما شابه ذلك . ولم يطبع القرآن والتفسير والحديث إلا بعد نظر وتحقيق وصدور إرادة سلطانية جديدة وفتوى أخرى . وكان ذلك كله قبل نهاية القرن الثامن عشر وقبل حملة نابليون على مصر عندما أُسست أول مطبعة باللغة العربية في القاهرة زالت بزوال الاحتلال الفرنسي . وأول مطبعة حديثة بعد ذلك أسسها محمد علي باشا في بولاق سنة ١٨٢٠ ، وفيها طبعت كتب كثيرة ، من دينية ولغوية وأدبية وعلمية ، باللغة العربية والتركية وغيرهما .

فإذا استثنينا ما كان متداولاً بين الطوائف النصرانية حتى ابتداء القرن التاسع عشر من الكتب المقدسة وكتب الصلوات المطبوعة في أوروبا أو في أديرة سورية ، فإن معظم الكتب الأخرى باللغة العربية كان صادراً من مطابع إستانبول والقاهرة ، وبعضها من مطابع الآداب الشرقية في أوروبا . وظلت هذه المطابع وحدها تغذي بلدان الشرق الأدنى بالكتب أثناء النصف الأول من القرن التاسع عشر . ولم يصدر من المطبعة الأمريكية ولا من المطبعة اليسوعية في ذلك الوقت شيء من كتب اللغة العربية وآدابها أو من كتب الثقافة العربية أو الدين الإسلامي .

— ٢ —

بعد هذا الإيضاح ندرس الآن قيمة ما وصلنا من الكتب التي طبعت في مالطة أو بيروت في النصف الأول من القرن التاسع عشر . وهذه الكتب غير موجودة في المكاتب العامة ، وقد عثرنا على بعضها أثناء التنقيب في سجلات المبشرين في إنكلترا وفي أمريكا ، فأخذنا ما عندنا منها بإذن أصحابها وهي :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(١) كتاب تعليم القراءة إلي (كذا) الأطفال الصغار (طبع في مالطة سنة ١٨٢٨) .

(٢) مثل الابن الضالّ المهتدي (طبع في مالطة سنة ١٨٣١) .

(٣) كتاب تواريخ مختصر (طبع في مالطة سنة ١٨٣٣) .

(٤) خبرية أسعد الشدياق (طبع في مالطة سنة ١٨٣٣) .

(٥) كتاب تعليم مسيحي (طبع في بيروت سنة ١٨٤٣) .

(٦) كتاب ذخيرة الإيمان (طبع في بيروت سنة ١٨٤٣) .

(٧) كتاب تعليم القراءة (طبع في بيروت سنة ١٨٤٦) .

(٨) نبذة المرأة على البير (لا ذكر لمكان الطبع أو سنته) .

يتضح من العنوان والمادة أن الكتب : الثاني والخامس والسادس مخصصة لأمور دينية . وأما الكتاب الرابع فهو لبيان كيفية اعتناق أسعد الشدياق مذهب البروتستانت وسبب تركه مذهب أهله . والكتاب الثامن مخصص للقصة المذكورة في الإصحاح الرابع من إنجيل يوحنا . أما الكتاب الأول والسابع فظاهر عنوانها لا يدل على مادتها ، إذ هما في الحقيقة من الكتب التي تستخدم القراءة لأغراض دينية . وكان المنتظر أن يكون الكتاب السابع أقل التزاماً لهذه القاعدة من الكتاب الأول لمرور نحو عشرين سنة ولما كان بين البريطانيين والأمريكان من تعاون أثناءها . لكن الواقع أن الكتاب لا يحتوي بعد الصفحة العاشرة إلا على نخبة من أقوال موسى وسليمان والمسيح ، ونص الصلاة الربانية والوصايا العشر والمزامير .

وهنا يحسن إيضاح المقصود بقولهم : كتاب كذا ، من جهة الحجم فقط ، إذ كل هذه المطبوعات لا ينطبق عليها قولنا : كتاب . أما أصغرها وهو آخرها ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فعدد صفحاته لايزيد عن ست عشرة ومعدل عدد الكلمات في الصفحة نحو الستين وسنفصل القول الآن عن كتابين فقط :

(١) كتاب تعليم القراءة إلى الأطفال الصغار (سبعون صفحة)

« أيها القاري الأكرم * .

« ان القراة هي أصل المعرفة المفيدة لأنها تجعلنا بأن نعرف كلام الغيرولين « كانوا بعيدين عنا ونستطيع أن نتعلم كل شي مفيد خاصة الاشيا اللازمة « لخلاص نفوسنا ، وقد نجد بسبب واحد كثيرا من الناس جهلا اشرارا وذلك « لعدم استطاعتهم علي ان يقراوا كتب الناس الحكما وكتب الله المقدسة . « ثم اننا اذا اردنا ان نتعلم القراة فيجب علينا ان نبتدي بتعليم الحركات « والحروف ثم بالهجا ، واخيرا بتعليم الكلام وتركيبه ، وقد اخترت وضع « الحركات اولاً لانها اصوات يستطيع علي لفظها الاطفال بسهولة اكثر من « صوت اخر ، وايضاً لانها اصل صوتنا كلنا . ثم اني اخترت بعد ذلك الحروف « السهلة للفظ الاطفال، واذا امكنهم ان يتعلموا هذه فيتعلمون الحروف حسب « قواعد النحو سريعا ... »

أما مادة الكتاب فهي تعريف الحركات والحروف والفعل والاسم والحرف في نحو عشرين صفحة ، ثم تخصص الصفحات الباقية وهي معظم الكتاب لبعض الأقوال من الكتاب المقدس وبعض الأمثال السائرة ، ثم بعض القصص القصيرة كهذه : « حمار اشتكى بان لا قرون له فاشتكى القرد ايضاً بان لا ذنب له ، فقال لهما الخلد اما تنظراني بلا عينين هذا يعلمنا بانا اذا لم نقنع بحظنا فننظر اوليك الذين لهم أقل منا فنصير قنوعين . »

وفي الكتاب قصص أخرى تدل مادتها وأسماء الأعلام فيها على أنها مترجمة

* يعرض النص كما جاء في الأصل .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

عن الانكليزية . وفي الكتاب كله عظات مبثوثة في القصص أو موضوعة عند النهاية. وفيه أيضاً قصص عن موسى وسليمان والمسيح ، وينتهي بشعر هذا نوعه :

هذا الرقيع بعده جنات عدن ظاهره
دار السلام والهنا لكل نفس طاهره
هناك اخلاص الوداد والوجوه الناضره
ثم البنون الافضلون في حيوة فاخره
كذلك الخطاة يثوون جحيماً ساجره

(٢) **كتاب تواريخ مختصر ينبي عن ممالك وبلاد عديدة** (مئة وست وثلاثون صفحة)

« المقدّمة

« اعلم ان هذا الكتاب يتضمن أخبار ممالك وبلاد متنوعة عن أزمنة قديمة « وحديثة . وبما ان مقصودنا به ان يكون مختصرا فما أمكنا ان نخبر عن كلها « جرى بتدقيق ، ونوضح عن كل قيل ومقال ، لكنا استقطفنا أزهار ما كتب ، « واستنتجنا نفايس ما نسب ، ولما كان ذا ايجاب فدرجناه مابين سوال وجواب « حتي تنتفع منه الفتيان وتتنشط بواسطته الصبيان ... فواجب علي كلمن هو « ملتزم في تعليم الغير وتهذيبهم انه يوضح للذين يرتشدون منه اخبار تواريخ « العالم كل آن في اوانه ، لان هذه التواريخ هي امر عظيم وضروري لتهذيب « الانسان وتعقله ، لاسيما ان ساير العلوم تدور داخل دايرتها ومرتكنة على « اعمدتها وانصبتها ، وخلاها لا يستطيع احد ان يكسب معرفة تامة « عن ادنى علم ... »

يبدأ الكتاب كما تقول المقدمة ، على طريقة السؤال والجواب ، بمملكة بابل ، وينتهي بتاريخ بريطانيا وامريكا . خذ مثلاً على مادّته ومقدار ما فيها من التشويه والغرض الجزء الخامس الخاص بسورية (ص ١٨ — ١٩) ، فالسؤال

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الوارد هنا هو « متى رفعوا يدهم الرومانيون من هذه المملكة » وهذا جوابه : « في سنة ستماية واربعين لما غزوا عليها العرب ، لكنهم ما قدروا علي امتلاكها « من أجـل ان نصاري اهـل تلك البلاد اشتعلوا حميـة وقاموا عليهم وضربوهم « وخلصوا القرا من ايادهم ، وفي انتها الدهر الثـاني عشر اجتهدوا وفكوا « اورشليم من يدهم . وفي سنة الف وسبعماية وثمان عشر مسيحية انثنوا عليهـا « ايضاً العرب بقوة سلاطينهم وفتحوها ، وتسلطوا عليها ، وبعد ذلك تسلط « عليها آل عثمان ، والآن خاضعة لمملكة مصر . » (طبـع هذا الكتاب في سنة ١٨٣٣ عندما كانت سورية تحت حكم محمد علي باشا والي مصر) .

والجزء السادس خاص بتاريخ فلسطين (ص ١٩ – ٢٢) . والسؤال الوارد على الصفحة الأخيرة هو هـذا « ماذا ذكر في اخبار بلاد فلسطين المتداولة عن خراب اورشليم . » وهذا الجواب عليه : « لما ضعفت قوة الرومانيين واضمحلت « مملكتهم انطلقوا اليها جيوش آل عثمان وفتحوها . ولاجل انهم جاروا علي « نصاري تلك البلاد وظلموهم ارسلوا ملوك اوروبا جيوشا وافرة صحبة كودفري « رئيس العساكر الذي اختار فيما بعد وصار ملكا علي مدينـــة اورشليم ، « وضربوهم واخرجوهم من تلك البلاد بالكلية، وكان خروجهم منها في سنة الف « وتسع وتسعين مسيحية وفي سنة الف وثمان وستين التفتوا اليهـا وحاصروها « وتملكوا عليها والآن هي تحت حكم مملكة مصر . »

والجزء السابع عشر خاص بتاريخ بلاد العرب (ص ٣٦ – ٤٠) . ومن الأسئلة الواردة فيه « ماذا ذكر عن عمر بن الخطاب » والجواب على ذلك هو « انه غزا علي برّ الشام وفتحـه ، ثم ملك أرض فلسطين كلها وبر مصر ومملكة العجم وجزيرة قبرص، وفي سنة سبعماية وتسع مسيحية قام الوالد (كذا) الاول وملك افريقية وقسما واسعاً من مملكة صپانيا »

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الغريب في هذا « التاريخ » أنه لا ذكر لمحمد أو الإسلام فيه ، إلا في هامش صفحة ٣٩ عند الجواب على هذا السؤال «متى ظهروا الوهابيون » يقول الكاتب إن الأمير الوهابي « غزا علي مكا (كذا) وفتحها في اليوم السابع والعشرين من شهر نيسان سنة الف وثمانماية وثلاث مسيحية . . . » ففي الهامش يقول الكاتب إن مكة مدينة مشهورة في الحجاز « اليها ينطلقون الحجاج فيحجون . . . لاجل انها ارض ميلاد النبي محمد . . . » وأما المدينة فيعرفها هامش آخر على الصفحة نفسها بأنها « مدينة صغيرة . . . موصوفة لاجل ان النبي محمد مات ودفن فيها . »

— ٣ —

يتضح من هذا كلّه أن الكتب المذكورة أعدت للاستعمال في مدارس أولية ، وأنه ليس بينها ما يصلح لمستوى أعلى من ذلك . وهذه الكتب كثيرة الأغلاط اللغوية والإملائية ، ولغتها سقيمة عندما تخلو من هذه الأغلاط . أما كتاب التاريخ ففيه أغلاط شنيعة بعضها سببه جهل ، ولكن سبب معظمها تعصب ظاهر في تجاهل الحقائق أو طمسها بتشويش التسلسل التاريخي . لهذا يصح القول : إن ضرر هذا الكتاب كان أكثر من نفعه في المدارس وبين القراء إجمالاً .

لكنه من الإنصاف أن نذكر أن هذا الكتاب وأمثاله استعمل في مدارس طائفة البروتستانت فقط ، وأن معظم الطوائف النصرانية الأخرى أعرضت عن هذه الكتب لما كان بين هذه الطوائف والمبشرين البروتستانت من الخصام ، وخاصة في الوقت الذي صدرت فيه هذه الكتب . أما مدارس المسلمين فمن المؤكد أن هذه الكتب لم تصلها . وعليه فأثرها مهما كان شراً أو خيراً لم يشمل الأكثرية الساحقة من النصارى والمسلمين في البلاد .

ولما كانت الأشياء ، كما قال الشاعر ، تتميز بضدها (أو نظيرها) نذكر الآن بعض ما أصدرته مطبعة بولاق من الكتب المطبوعة في اللغة العربية في

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المدة نفسها أي منذ تأسيسها حتى أواسط القرن التاسع عشر . فقد وقفنا أثناء بحثنا في السجلات الرسمية المصرية على قوائم من هذه الكتب أرسلت إلى سورية في سنة ١٨٣٩ أثناء الحكم المصري بناء على طلب القراء في عدة مدن منها حلب ودمشق واللاذقية وطرابلس ويافا وغزة . والقوائم مكتوبة بخط غير واضح ، ولا تذكر عنوان الكتاب كاملا ، وقلما تذكر اسم مؤلفه أو مترجمه . ولكنها تذكر اسم كل من طلب عدداً من هذه الكتب ومهنته ، فيسهل أن نرى أن من طلبوا الكتب كانوا من المسلمين والنصارى على السواء ، وكان بينهم أعضاء المجالس الاستشارية وموظفو الحكومة وضباط الجيش ورجال الدين والأطباء والصيادلة والمعلمون والوجهاء . وفيما يلي أمثلة من عناوين الكتب مبوبة بعض التبويب :

كتاب الحكمة . كتاب الجراحة . كتاب فسلوجيه . كتاب بتلوجيه . كتاب الطاعون . تطعيم الجدري . تشريح بشري . القانون البيطري . اقرباذين .

كتاب الطبيعة . كتاب جر الأثقال . كتاب المعادن ، قانون الصناعة . قانون الزراعة . أصول الهندسة . الهندسة الوصفية . عقرب الساعة . الجغرافية الطبيعية . علم الحساب . اللوغارتمه .

متن الألفية . الكفراوي . ابن عقيل . ابن مالك . جملة النحو . أجرومية . القاموس [غالباً المقصود هو الفيروزابادي] . كليلة ودمنة . كتاب المنطق . رحلة الشيخ رفاعة [الطهطاوي] . إنشاء العطار [غالباً المقصود هو الشيخ حسن العطار شيخ الجامع الأزهر] .

تاريخ مصر . تاريخ اسكندر . تاريخ بونابرته . تاريخ بنزو [غالباً المقصود بطرس الأكبر] . تاريخ ايتاليه . تاريخ أمريقا . تاريخ قدماء الفلاسفة . التاريخ العام (واصف) . تاريخ الأديان .

وتوجد في القوائم بعض الكتب التركية والفارسية . ويوجد كتاب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بعنوان « شرح مثنوي » لا يتضح هل هو بالفارسية أو العربية . وهناك كتاب بعنوان « سير حلبي » والظاهر أنه السيرة الحلبية[١] .

هل يحتاج الباحث إلى كثير من النظر والمقابلة بين كتب مصر و كتب المبشرين حتى يقرر أيها كان أكثر تنوعاً وشمولاً ، وأحب إلى قلوب العرب إجمالاً ، وأجدر أن يكون عاملاً في إغناء اللغة العربية وبعث نهضة أدبية وعلمية بين أهلها ؟ ولئلا يظن أن ما ذكر أعلاه قد لا ينطبق على النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، نقول كلمة في ذلك إتماماً للبحث .

— ٤ —

يمتاز النصف الثاني من القرن التاسع عشر على النصف الأول في ميدان التبشير بإصدار ترجمة عربية للتوراة تحت إشراف المبشرين الأمريكان وإصدار ترجمة عربية أخرى لها تحت إشراف اليسوعيين . ويمتاز أيضاً بما دار أثناءه من المهاترات بين الطائفتين من المبشرين ، واستخدام المطبعة الامريكية والمطبعة الكاثوليكية في بيروت لنشر ذلك . ويمتاز زيادة على ذلك بأن حاجة الكلية السورية الإنجيلية (التي تعرف الآن بالجامعة الأمريكية في بيروت) قد استدعت طبع عدد من الكتب العلمية والطبية في اللغة العربية بعد سنة ١٨٦٦ .

ترجمت التوراة إلى اللغة العربية منذ القرون الوسطى ، وفي الأزمنة الحديثة ظهرت ترجمات مطبوعة في باريس ولندن . ولكن أشهر الترجمات تلك التي ظهرت في روما سنة ١٦٧١ للميلاد ثم أعيد طبعها مراراً . وعلى هذه الطبعة اعتمد المبشرون البروتستانت في أول عهدهم ، فأعادوا طبعها بعد حذف بعض الأسفار التي تعتبرها الكنيسة الكاثوليكية مقدسة ، مما سبب كثيراً من المشاحنة بين الطرفين في سورية ،

(١) القوائم المذكورة موجودة في دار الوثائق التاريخية القومية في القاهرة . قصر عابدين . محفظة رقم ٢٥٧ — كتاب مؤرخ في ٢٤ جمادى الآخرة سنة ١٢٥٥ هـ من شريف باشا حاكم سورية .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وآل أخيراً إلى إصدار ترجمة يسوعية تشمل تلك الأسفار المحذوفة ، جاء في مقدمتها :

« لا يخفى أن جماعة المبتدعين من الشيعة البروتسطانية منذ دخلوا البلاد السورية ما زال جل همهم مناصبة الإيمان الكاثوليكي . . . وقد لفقوا في الدين كتباً شتى شحنوها بالقدح في حق البيعة المقدسة وتخطئة تعليمها الصحيح . . . ثم إنهم لم يكتفوا بذلك حتى مدّوا أيديهم إلى الأسفار الإلهية بالتحريف والحذف وترجموها إلى اللسان العربي . . . »[1] .

وقد راجعنا البيانات السنوية لكل من المطبعة الأمريكية واليسوعية وهي محفوظة في المتحف البريطاني في لندن ، فعجبنا لمقدار اهتمام كل منهما بالمهاترات ، واستغربنا قلة الاهتمام بكتب اللغة العربية وآدابها ، فمثلاً نشرت المطبعة الأمريكية رسالة بقلم ميخائيل مشاقة الذي اعتنق مذهب البروتستانت ، هاجم فيها عقائد مذهبه القديم ، فردت المطبعة اليسوعية على ذلك برسالة عنوانها « موسى الحلاقة في ذقن مشاقة » . وفي سنة ١٨٧٦ طبعت المطبعة الأمريكية رسالة وصفها حاكم بيروت التركي بأنها طعن وسب لا يليق أن يوجه مثلها إلى البطريرك الماروني . وفي بيان المطبعة الكاثوليكية لسنة ١٨٨٣ توجد ثلاث صفحات ملأى بعناوين كتب جدلية عنوان أحدها « تعليم المجادلات الدينية » وخاصة ماله علاقة بطائفة البروتستانت .

أما طبع الكتب العلمية والطبية باللغة العربية فلم تنفرد به المطبعة الأمريكية كما هو الشائع ، بل طبع عدد منها في المطابع الأهلية . والسبب في ذلك أن ذوي الشأن في أمريكا أرادوا استمرار تخصص المطبعة في نشر الكتاب المقدس

---

(١) راجع رأي الأب لويس شيخو اليسوعي في الترجمتين الأمريكية واليسوعية في كتابه « الآداب العربية في القرن التاسع عشر » (بيروت ، ١٩٠٨) ص ٧٥ . قابله برأي جرجي زيدان في الهلال (السنة الثانية) ص ٥٩٣ ، ٦٦٢ ، ٧٣٤ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والكتب الدينية وبعض الكتب التي تحتاجها مدارس المبشرين، كما هو واضح من الأمر الصادر في سنة ١٨٦٨ : « يجب حصر عمل المطبعة بما هو خاص بالعمل التبشيري ، فلا تطبع كتاباً لا تكون فائدته ظاهرة لنشر الإنجيل[١] » .

فإذا استثنينا الكتاب المقدس والكتب الدينية الصرفة ، رأينا أن المطبعة الأمريكية لم تطبع حتى تلك السنة سوى خمسة كتب مدرسية في قواعد اللغة العربية ، والحساب ، والجغرافية ، والجبر ، والهندسة. وأول كتاب من مستوى أعلى من ذلك كان في الكيمياء ألفه الدكتور فان دَايْك ، وقد طبع في تلك السنة على نفقة مؤلفه. ثم تلاه كتاب في التشريح وآخر في الفسيولوجيا تأليف الدكتور يوحنا ورتيان . وهنا يجدر بنا أن نتذكر ما طبع من هذه الكتب في مصر قبل ثلاثين سنة ففضله لايجوز تجاهله لأن السابق مَهَّد للاَّحق على الأقل في ترجمة المصطلحات .

وقد أحصينا الكتب العلمية والطبية التي نشرت في بيروت لاستعمالها في الكلية السورية الإنجيلية في مقالة مطولة نشرت في « كتاب العيد »[٢] ، ويمكن هنا وصفها إجمالاً بأنها لا تشمل شيئاً في اللغة العربية أو آدابها أو غير ذلك من التراث العربي والإسلامي ، فالفضل في طبع كتب في هذه الفنون كان للمطابع الأهلية في بيروت ، فقد خلفت مطابع استانبول وشاركت مطابع مصر في ذلك . فصدر منها جميعاً ، من جملة ما صدر ، كتاب إحياء علوم الدين للغزالي ، وكتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ، وكتاب الأمثال

---

(١) كتابان مؤرخان في ٣ و ١٤ حزيران سنة ١٨٦٨ محفوظان في مكتبة جامعة هارفارد ABC : 16.8.1,vol. vii(2)

(٢) American University of Beirut Festival Book (Festschrift), edited by Fuad Sarruf (Beirut, 1967) p. 257-284

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

للميداني ، و كتاب مقدمة ابن خلدون ، وديوان المتنبي وغير ذلك[١] .

— ٥ —

أنصف جرجي زيدان عندما قال ، بناء على حقائق ثابتة : إن مصر سبقت المبشرين الأمريكان والكلية السورية الأنجيلية بنقل كتب مختلفة في العلوم الطبيعية والرياضية والطبية وغيرها إلى اللغة العربية لأجل استعمالها في المدارس[٢] ولكنه أخطأ عندما قال ، دون الاعتماد على حقائق ثابتة : إن الكلية امتازت « بإحياء الآداب العربية وخدمة الجامعة العربية لأنها كانت منذ نشأتها تعلم العلوم باللغة العربية[٣] » .

فأما إحياء الآداب العربية فالبحث السابق لا يثبته ، خصوصاً لأنه لم ينشر أحد من أساتذة الكلية شيئاً من كتب الأدب العربي ، والمشهور أن الكلية لم تعلّم مادة الأدب العربي أثناء القرن التاسع عشر . وأما خدمة الجامعة العربية فغير واضح المعنى ، فإذا كان المقصود بذلك من الناحية السياسية فالكلية لم تعلم شيئاً من علوم السياسة أو الاقتصاد أو الإدارة أو الاجتماع في المدة المذكورة ، بل كان همها الأول خدمة التبشير وإعلاء شأن المذهب البروتستانتي . وأما التعليم باللغة العربية فكان من سنة ١٨٦٦ إلى سنة ١٨٧٩ في الدائرة العلمية وإلى سنة ١٨٨٤ في الدائرة الطبية ، إذ بعد ذلك صار التعليم باللغة الإنكليزية . ونتج عن ذلك أن قلّ الاهتمام بتأليف الكتب في اللغة العربية أو ترجمتها إلى تلك اللغة .

---

(١) نشرت مجلة المشرق ج ٣ ص ١٧٩ ، ج ٤ ص ٨٦ ، ج ٥ ص ٦٩ قوائم بالكتب التي صدرت من هذه المطابع .

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية (القاهرة ، ١٩١٤) ج ٤ ، ص ١٨٤ ، ٢١٧

(٣) الكتاب والجزء نفسهما ، ص ٥١

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لا شك أن الكلية قد خدمت سورية بما أخرجت من شبان أصبح كثير منهم من زعماء البلاد في ميادين السياسة والعلم والأدب ، ولكن جل هؤلاء إن لم يكن كلهم ، في المدة التي تتناولها هذه المقالة ، كانوا من النصارى دون المسلمين . ولا شك أن المطبعة الأمريكية لها فضل كبير بما أخرجته في اللغة العربية من كتب دينية وخاصة ترجمة التوراة . ويمكن قول مثل ذلك في تقدير خدمة الكلية اليسوعية والمطبعة الكاثوليكية .

ولكن الذين ينسبون الفضل في النهضة الأدبية أو السياسة إلى هذه المعاهد الأجنبية يغالون في قيمتها ويقللون من شأن العوامل الوطنية الأهلية كما يظهر مما سبق في بيان خدمة المطابع الأهلية في نشر كتب اللغة العربية وآدابها . وكذلك يمكن عند ذكر المدارس الأجنبية التنبيه إلى قيمة المدارس الأهلية كمدرسة عين ورقة المارونية والمدرسة الوطنية لمؤسسها بطرس البستاني وعدد من المدارس المشابهة التابعة للطائفة الأرثوذكسية ولطائفة الروم الكاثوليك .

عثرنا في سجلات الجامعة الأمريكية في بيروت غير المبوّبة على قائمة تاريخها ١٨٦٩ أعدها المبشرون تذكر أسماء مدارس مختلف الطوائف في المدينة وتبين المباحث التي عُلمت في كل مدرسة ومستوى ذلك كله في كل منها . والناظر في هذه القائمة يرى أن بعض المدارس كان داخلياً ومن درجة عليا ، وأن اللغة العربية كانت تعلّم على مستوى عالٍ ، وأن الفرنسية والإنكليزية واليونانية والتركية كانت تعلم أيضاً . وفي القائمة ذكر لثلاث مدارس إسلامية وهي القادرية والأحمدية والرشدية (وهذه غالباً مدرسة رسمية عثمانية) .

لا ذكر في هذه القائمة لمدارس الجوامع أو المدارس التي كانت قائمة في أبنيتها الخاصة تنتفع من أوقاف حبست عليها . حتى المدارس السلطانية العالية التي أسستها الحكومة العثمانية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر لا ذكر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لهـا في الكتب التي وقفنا عليها . وقليلون الذين يقدرون قيمة دروس اللغـة العربية التي ألقاها الشيخ محمد عبده في المكتب السلطاني في بيروت أثناء مدة إقامته في المدينـة ، أو الدروس الدينية التي ألقاها في الجامع الكبير في تلك المدينة وحضرها بعض النصارى مع إخوانهم المسلمين ، أو كتابته وهو في تلك المدينة لأصول « رسالة التوحيد » وشرح « نهج البلاغة » و « مقامات البديع » .

فمـا هو السبب في إصرار الأجانب من الكتاب ، ومحاكاة بعض كتاب العرب لهم ، في نسبة الفضل في النهضة إلى الأجانب وتجاهـل نصيب العنصر الوطني الأهلي في ذلك ؟

- ٦ -

أصل الوهم مبالغة عظيمة في أثر حملة نابليون على مصر واعتبارهـــا عاملاً أساسياً في النهضة في القرن التاسع عشر . وأصل هذا الرأي فرنسي نشره في الشرق بعض من تعلموا في المدارس الفرنسية أو من كانوا غافلين فبهرتهم مدنية أوروبا وأخجلهم تأخر الشرق .

فإذا نظرنا في الحقائق التاريخية الثابتة تبين لنا أن حملة نابليون على جنوب سورية دامت نحو أربعة أشهر ، كان من نتائجها ، إضافة إلى خسارة البلاد في الأرواح والأموال ، إثارة التعصب بين المسلمين وإخوانهم النصارى . أما في مصر فقـد دام الاحتلال الفرنسي مدة تقل عن ثلاث سنوات انقضى بعضها في الحرب وبعضها في إخماد الثورات . وفي أثنائها اضطهد شيوخ الأزهر واضمحل شأن الجامع إجمالاً بتشرد عدد من علمائه وطلابه .

بالغ بعضهم بتقدير قيمة المعهد الفرنسي الذي أسس في القـاهرة ، وغاب عنهم أن المعهد كان لمنفعة الفرنسيين لا المصريين ، وأن علماءه ازدادوا معرفة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بمصر وزادوا معرفة أهل أوروبا بهـــا ، ولكنهم لم يزيدوا معرفة المصريين لا بأنفسهم ولا بالتمدن الأوروبي . وما ذكره الجبرتي من « عجائب » التجارب العلمية التي شاهدها هو وغيره من علماء المصريين لم يكن أكثر من ألعاب تعرض أمام الأطفال ، فأثرها على عقول من رآها كان عجباً لا عملاً ولا فكراً . ولو لم يَفُزْ محمد علي باشا بالسلطة على مصر بعـــد جلاء الفرنسيين لعادت مصر إلى ما كانت عليه قبل الاحتلال . فهو الذي بدأ النهضة بعد سنوات من جلاء الأجانب ، مستعيناً بهم ، مشابهاً ومتابعاً ، ما بدأه السلطان في إستانبول .

لم أر بين الذين يكررون القول دون تحقيق أن الحملة الفرنسية كانت عاملاً في النهضة ، مَنْ يؤكد قوله بالشواهد المحسوسة فيذكر على وجه التعيين لا التعميم معنى كلامه . والغريب في أمر هؤلاء أنهم يتعصبون للبلد الذي ينتسبون إليه أو المدرسة التي تعلموا فيها أو الأمة الأجنبية التي أحيوا آدابها . فاللبناني مثلاً يقدم للبنان وينسى باقي البلاد السورية ، والذي تعلم عند اليسوعيين ينسب إحيـاء آداب اللغة العربية إلى مدارسهم ومطبعتهم ، والذي تعلم عند الأمريكان ينسبه إلى الكلية السورية الإنجيلية والمطبعة الأمريكية . ولكنهم جميعاً ينسون المدارس الوطنية من إسلامية ونصرانية ، وينسون المطابع الأهلية . ولو بحثوا لأنصفوا وقالوا إن النهضة تعود إلى جميع هـذه العوامل وإنه يصعب تقسيم الفضل بينها قسمة عادلة .

عبد اللطيف الطيباوي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net